اليمـامتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء فى تاريخ الواقدى «أن (المقوقس) عظيمَ القبط فى مصر زوّج بنتَه (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هِرَقْل) وجهّزها بأموالها وحَشَمِها لتسير إليـــه ، حتى يبنىَ عليها فى مدينة قيسارية « سورية » ؛ فخرجت إلى بلبيس وأقامتْ بها . . وجاء عَمْرُو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً وقاتلَ مَن بها ؛ وقَتل منهم زُهاءَ ألفِ فارس ، وانهزم مَن بقى إلى المقوقس ، وأُخِذت أرمانوسةُ وجميعُ مالها ، وأُخِذ كلُّ ما كان للقبط فى بلبيس . فأجبّ عمرٌو ملاطفةَ المقوقس ، فسيّر اليه ابنتَه مكرَّمةً فى جميع مالها ، (مع قيس بن أبى العاص السهمى) ؛ فسُرَّ بقدومها . . . »

* * *

هذا ما أثبتَه الواقدى فى روايتـه ، ولم يكن مَعْنياً إلا بأخبار المغازى والفتوح ، فكان يقتصر عليها فى الرواية ؛ أما ما أغفلَه فهو ما نَقُصُّه نحن :

كانت لأرمانوسةَ وصيفةٌ مولّدةٌ تُسَمَّى (مارية) ، ذاتُ جمالٍ يونانىٍّ أعته مصرُ ومَسَحَتْه بسحرها ، فزاد جمالُها على أن يكون مصريّاً ، ونَقَصَ الجمالُ اليونانىّ أن يكُونَه . ولمصر طبيعةٌ خاصة فى الحُسن ؛ فهى قد تُهمِل شيئاً فى جمال نسائها أو تشعّث منه ، وقد لا توفّيه جُهدَ محاسنها الرائعة ؛ ولكن متى نشأ فيها جمال يَنْزِع إلى أصلٍ أجنبى ، أفرغت فيه سحرَها إفراغاً ، وأبتْ إلا أن تكون الغالبةَ عليه ، وجعلتْه آيتَها فى المقابلة بينه فى طابَعِه المصرىّ ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنةً ما كانت ؛ تغارُ على سحرها أن يكون إلا الأعلَى

وكانت مارية هذه مسيحيةً قويةَ الدِّينِ والعقل ، اتخذها المقوقسُ كنيسةً حيّةً لابنته ، وهو كان والياً وبَطْرِيَرْكاً على مصر من قِبَل هرقل ؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الاسلامى جاء فى عهده ، فجعل اللهُ قلبَ هذا الرجل مفتاحَ القُفل القبطىّ ، فلم تكن أبوابُهم تدافع إلا بمقدار ما تُدفَع ، تُقاتل شيئاً من قتالٍ غيرِ كبير ، أما الأبوابُ الروميّة فبقيتْ مستغلِقةً حصينةً لا تُذعن إلا للتحطيم ، ووراءها نحو مائة ألفِ رومىٍّ يقاتلون المعجزةَ الاسلاميّةَ التى جاءتهم من بلاد العرب أوّلَ ما جاءت فى أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزيدوا آخرَ ما زادوا على اثنى عشر ألفاً . كان الروم مائة ألف مُقاتلٍ بأسلحتهم ولم تكن المدافع معروفة ، ولكن رُوح الاسلام جعلت الجيش العربىّ كأنه اثنا عشر ألفَ مِدفع بقنابلها ؛ لا يقاتلون بقوّة الانسان ، بل بقوّة الروح الدينيـة التى جعلها الاسلامُ مادةً مُنفجرةً تُشْبه الدِّينامِيتَ قبل أن يُعرَفَ الدِّينامِيت !

ولما نزل عمرٌو بجيشه على بلبيس ، جزعتْ مارية جزعاً شديداً ؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العربَ قومٌ جياعٌ يَنفضهم الجدبُ على البلاد نَفْضَ الرمالِ على الأعين فى الريح العاصف ؛ وأنهم جرادٌ إنسانىٌّ لا يغزو إلا لبَطْنِه ؛ وأنهم غِلاظُ الأكباد كالابل التى يمتطونها ؛ وأن النساء عندهم كالدَّوابّ يُرْتَبَطْنَ على خَسف ؛ وأنهم لا عهدَ لهم ولا وفاء ، ثقلت مطامعهم وخفّت أماناتُهم ؛ وأن قائدهم عَمْرَو بن العاص كان جزّاراً فى الجاهليّة ، فما تَدَعُه روحُ الجزّار وطبيعتُه ؛ وقد جاء بأربعة آلاف سالخٍ من أخلاط الناسِ وشُذّاذهم ، لا أربعة آلاف مقاتلٍ من جيشٍ له نظامُ الجيش !

وتوهّمت مارية أوهامَها ، وكانتْ شاعرةً قد درست هى وأرمانوسة أدبَ يونانَ وفلسفتَهم ، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقّد يُشْعِرُها كلَّ عاطفةٍ أكبرَ مما هى ، ويضاعف الأشياء فى نفسها ، وينزِعُ إلى طبيعته المؤنّثة ، فيبالغُ فى تهويل الحزنِ خاصّة ، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم . . .

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوساوس ، فجعلت تندب نفسها وصنعت فى ذلك شعراً هذه ترجمتُه :

جاءكِ أربعةُ آلافِ جزّارٍ أيَّتُها الشاةُ المسكينة !
ستذوق كلُّ شعرةٍ منكِ ألمَ الذبح قبل أن تُذبَحى !
جاءكِ أربعةُ آلافِ خاطفٍ أيتها العذراءُ المسكينة !
ستموتين أربعةَ آلافِ ميتةٍ قبـــل الموت !
قوّنى يا إلهى ، لاغمدَ فى صدرى سكّيناً تردُّ عنى الجزّارين!

يا إلهي ، قوِّ هذه العذراءَ لتتزوَّجَ الموتَ قبل أن يتزوجها العربي . . !

* * *

وذهبت تتلو شِعرَها على أرمانوسةَ في صوتٍ حزينٍ يتوجَّع ؛ فضحكتْ هذه وقالت : أنتِ واهمةٌ يا مارية ؛ أنسيتِ أن أبي قد أهدَى إلى نبيِّهم بنتَ (أنْصِنا)[1] فكانت عنده في مملكةٍ بعضُها السماء وبعضُها القلب ؟ لقد أخبرني أبي أنه بَعَثَ بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبيّ ؛ وأنها أنفذتْ اليه دسيساً يُعلِمُه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيَّهم أطهرُ من السحابة في سمائها ، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم لا من حدود أنفسهم ؛ وإذا سَلُّوا السيف سَلُّوه بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون . وقالت عن النساء : لأن تخافَ المرأةُ على عفَّتها من أبيها أقربُ من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبيّ ؛ فانهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضميرُ الاسلاميُّ في الرجل منهم - يكون حاملا سلاحاً يَضرب به صاحبَه إذا همّ بمخالفته

وقال أبي : إنهم لا يُغيرون على الأمم ، ولا يحاربونها حربَ المُلْك ؛ وإنما تلك طبيعةُ الحركةِ للشريعة الجديدة تتقدَّم في الدنيا حاملة السلاحَ والأخلاق ، قوية في ظاهرها وباطنها ؛ فمن وراء أسلحتهم أخلاقُهم ؛ وبذلك تكون أسلحتُهم نفسُها ذاتَ أخلاق !

وقال أبي : إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاعَ العُصارة الحيَّةِ في الشجرة الجرداء ؛ طبيعةٌ تعمل في طبيعة ؛ فليس يَمضي غيرُ بعيد حتى تخضرَّ الدنيا وترمىَ ظلالَها ؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تُشبِه في عملها الميتِ ما يشبه طلاءَ الشجرة الجرداء بلونٍ أخضر . . . ! شتانَ بين عمل وعمل ، وإن كان لون يشبه لونا

فاستراحتْ مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضيرَ علينا إذا فتحوا البلد ، ولا يكون ما نَستضرُّ به ؟

قالت أرمانوسة : لا ضير يا مارية ، ولا يكون إلا ما نُحِبُّ لأنفسنا ؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء الدلوج من الروم ، يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الحرص والحاجة إلى حلاله وحرامه ، فهم القساةُ الغِلاظ المُستكلِبون كالبهائم ، ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء والتمييز بين حلاله وحرامه ، فهم الانسانيّون الرُّحماءُ المتعففون

قالت مارية : وأبيكِ يا أرمانوسةُ إن هذا لَعجيب ؛ فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتبَ التي كتبوها . . . فلم يُخرِجوا للدنيا جماعة تامةَ الانسانية ، فضلاً عن أمةٍ كما وصفت أنتِ من أمر المسلمين ؛ فكيف استطاع نبيُّهم أن يُخرج هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أمياً . أفتستخر الحقيقةُ من كبار الفلاسفة والحكماء وأهلِ السياسة والتدبير فتدعهم يعملون عَبثاً أو كالعبث ، ثم تستسلم للرجلِ الأمّيِّ الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم ؟

قالت أرمانوسة : إن العلماء بهيئةِ السماء وأجرامها وحسابِ أفلاكها ، ليسوا هم الذين يَشُقُّون الفجر ويُطلعون الشمس ؛ وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعيةٍ بفطرتها يكونِ عملُها في الحياة إيجادَ الأفكار العمليةِ الصحيحةِ التي يسير بها العالم ، وقد درستُ المسيحَ وعملَه وزمنَه ، فكان طِيلةَ عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة ، غير أنه أوجدها مُصغرةً في نفسه وحواريِّيه ، وكان عمله كالبدءِ في تحقيق الشيءِ العسير ؛ حسبه أن يُثبتَ معنى الامكانِ فيه

وظهورُ الحقيقة من هذا الرجل الأمّيِّ هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفسها ، وبرهانها القاطع أنها بذلك في مظهرها الأسمى . والعجيبُ يامارية ، أن هذا النبي قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه ، فكان في ذلك كالمسيح ، غير أن المسيح انتهى عند ذلك ؛ أما هذا فقد ثبتَ ثباتَ الواقع حين يقع ؛ لا يرتدُّ ولا يتغير ؛ وهاجرَ من بلده فكان ذلك أولَ خطا الحقيقةِ التي أعلنت أنها ستمشي في الدنيا ، وقد أخذتْ من يومئذ تمشي . ولو كانت حقيقةُ المسيح قد جاءت للدنيا كلِّها لهاجرتْ به ، فهذا فرقٌ آخر بينهما . والفرق الثالث أن المسيح لم يأتِ إلا بعبادةٍ واحدةٍ هي عبادةُ القلب ، أما هذا الدينُ فعلمتُ من أبي أنه ثلاث عباداتٍ يشُدّ بعضها بعضاً : إحداها للأعضاء ، والثانية للقلب ، والثالثة للنفس ؛ فعبادة الأعضاء طهارتُها

(١) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت من (أنصنا)

واعتيادها الضبط ؛ وعبادةُ القلب طهارتُه وحبُّه الخير ؛ وعبادة النفس طهارتُها وبذلُها فى سبيل الانسانية . وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ؛ فلن تُقهرَ أمةٌ عقيدتُها أن الموتَ أوسع الجانبين وأسعدُهما

قالت مارية : إن هذا والله لسرٌّ إلهى يدلُّ على نفسه ؛ فمن طبيعة الانسان ألا تنبعث نفسه غير مباليةٍ الحياةَ والموت إلا فى أحوالٍ قليلة تكون طبيعةُ الانسان فيها عمياء : كالغضب الأعمى ، والحبِّ الأعمى ، والتكبُّر الأعمى . فاذا كانت هـــذه الأمةُ الاسلامية كما قلتِ ، منبعثةً هذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعورُ بذاتيتها العالية — فما بعد ذلك دليلٌ على أن هذا الدينَ هو شعورُ الانسان بسموِّ ذاتيتِه ، وهذه هى نهايةُ النهاياتِ فى الفلسفة والحكمة

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليلٌ على أنك تهيئين أن تكونى مسلمةً يامارية !

فاستضحكتا معاً وقالت مارية : إنما ألقيتِ كلاماً جاريتكِ فيه بحسبه ، فأنا وأنتِ فكرتان لا مسلمتان

* * *

قال الراوى : وانهزم الرومُ عن بلبيس ، وارتدُّوا إلى المقوقس فى (منف) ، وكان وحىُ أرمانوسة فى مارية مدةَ الحصار — وهى نحو الشهر — كأنه فكرٌ سكنَ فكراً وتمدَّد فيه ؛ فقد مرَّ ذلك الكلامُ بما فى عقلها من حقائق النظر فى الأدب والفلسفة ، فصنع مايصنع المؤلفُ بكتابٍ ينقِّحه ، وأنشأ لها أخيلةً تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكَّد لأنه مؤكَّد

ومن طبيعة الكلام إذا أثَّر فى النفس — أن ينتظم فى مثل الحقائق الصغيرة التى تاقى للحفظ ؛ فكان كلامُ أرمانوسة فى عقل مارية هكذا : « المسيحُ بدءٌ وللبدء تكملة ، مامن ذلك بدّ . لا تكون خدمةُ الانسانية إلا بذات عالية لا تبالى غير سموها . الأمة التى تبذل كل شىء وتستمسكُ بالحياة لا تأخذ شيئاً ، والتى تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شىء . »

وجعلتْ هذه الحقائقُ الاسلاميةُ وأمثالها تُعرِّب هذا العقلَ اليونانى ؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى مارية قالت لها : لا يجْمُل بمن كانت مثلك فى شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة تتوجَّهُ حيث يُسارُ بها ؛ والرأى أن تبدئى هذا القائدَ قبل أن يبدأك ؛ فأرسلى إليه فأعلميه أنك راجعةٌ إلى أبيك ، واسألية أن يُصحبكِ بعضَ رجاله ؛ فتكونى الآمرةَ حتى فى الأسر ، وتصنعى صُنع بناتِ الملوك !

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منكِ فى لسانكِ ودهائك ؛ فاذهبى إليه من قبلى ، وسيصحبُك الراهبُ (شطا) ، وخُذى معكِ كوكبةً من فرساننا

* * *

قالت مارية وهى تقصّ على سيِّدتها : لقد أديتُ إليه رسالتَكِ فقال : كيف ظنها بنا ؟ قلت : ظنها بفعل رجلٍ كريمٍ يأمره اثنان : كرمه ، ودينُه .. فقال أبلغيها أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال : « استوصوا بالقبطِ خيراً فان لهم فيكم صهراً وذِمة . » وأعلمها أننا لسنا على غارةٍ نغيرها ، بل على نفوس نُغيِّرُها

قالت : فصِفيه لى يامارية

قالت : كان آتياً فى جماعةٍ من فرسانه على خيولهم العِراب ، كأنها شياطينُ تحمل شياطينَ من جنسٍ آخر ، فلما صار بحيث أتبينُه أومأ إليه الترجمان — وهو (وردانُ) مولاه — فنظرتُ ، فاذا هو على فرس كُمَيْتٍ أحمّ (١) لم يخلص للأسْود ولا للأحمر ، طويل العنق مُشرفٍ له ذؤابةٌ أعلى ناصيته كطُرَّةِ المرأة ، ذيَّالٍ يتبختر بفارسه ويُحمحم كأنه يريد أن يتكلم ، مُطهَّم . . .

فقطعتْ أرمانوسة عليها وقالت : ما سألتُكِ صفةَ جوادِه

قالت مارية : أما سلاحه . . .

قالت : ولا سلاحه ، صِفيه كيف رأيتِه (هو)

قالت : رأيتُه قصيرَ القامةِ علامةَ قوة ، وافرَ الهامةِ علامة عقل ، أدعجَ العينين . . .

فضحكتْ أرمانوسة وقالت : علامةَ ماذا . . . ؟

. . . أبلجَ يشرق وجهُه كأن فيه لألاءَ الذهب على الضوء ، أيِّداً اجتمعتْ فيه القوةُ حتى لتكادُ عيناه تأمران بنظرهما أمراً . . . داهيةً كُتِبَ دهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنىً يأخذ

(١) الكميت الأحم : هو الأحمر الضارب للسواد ، لا يخلص لأحد اللونين ، فاذا كان أحمر خالصاً قيل فيه : كميت مدمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها)

من وراء ؛ وكلما حاولتُ أن أتفرّس فى وجهه رأيتُ وجهَه لا يُفسره إلا تكرار النظر اليه . . .

وتضرّجتْ وجنتاها ، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عينىْ أرمانوسة . . . وقالت هذه : كذلك كلُّ لذةٍ لا يفسرها للنفس إلا تكرارُها . . .

فغضّت ماريةُ من طَرْفها وقالت : هو والله ما وَصفت ، وإنى ما ملأتُ عينى منـــه ، وقد كدتُ أنكر أنه إنسانٌ لما اعترانى من هَيبته . . . . .

قالت أرمانوسة : من هَيبته أم من عَينيه الدعجاوَيْن . . . ؟

* * *

ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها فى صحبة (قَيس) ، فلما كانوا فى الطريق وَجبتْ الظُّهر ، فنزل قيسٌ يُصلى بمن معه والفتاتان تنظران ؛ فلما صاحوا : « الله أكبر . . . ! » ارتعش قلبُ مارية ، وسألت الراهبَ (شطا) : ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمةٌ يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ فى وقتٍ ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدىْ مَن هو أكبر من الوجود ؛ فاذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهواتِ الوقت ، فذلك هو دخولهم فى الصلاة ؛ كأنهم يَمْحُون الدنيا من النفس ساعةً أو بعضَ ساعة ؛ ومَحْوُها من أنفسهم هو ارتفاعُهم بأنفسهم عليها ؛ أنظرى ، ألا ترَينَ هذه الكلمة قد سَحَرتهم سِحْراً فهم لا يلتفتون فى صلاتهم إلى شىء ؛ وقد شملتهم السكينة ، ورَجعوا غيرَ مَن كانوا ، وخشعوا خشوعَ أعظم الفلاسفةِ فى تأمُّلهم

قالت مارية : ما أجلَ هذه الفطرةَ الفلسفيّة ! لقد تعبَت الكتب لتجعل أهلَ الدنيا يستقرون ساعة فى سكينةِ الله عليهم فما أفلحت ، وجاءت الكنيسة فهوّلت على المُصلّين بالزخارف والصُّوَر والتماثيل والألوان لتُوحىَ الى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الدِّينى ، وهى بذلك تحتال فى نقلهم من جوّهم الى جوّها ؛ فكانتْ كساق الحُر ؛ إن لم يعطك الحرَ عجَزَ عن إعطائك النَّشوة . ومن ذا الذى يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمار ؟

قالت أرمانوسة : نعم إن الكنيسةَ كالحديقة ؛ هى حديقةٌ فى مكانها ، وقلما تُوحى شيئاً إلا فى موضعها ؛ فالكنيسةُ هى الجدرانُ الأربعة ، أما هؤلاء فمعبدُهم بين جهات الأرض الأربع

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى بُسِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها ــ فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ

قالت مارية . وهل تُفتَح عليهم الدنيا ، وهل لهم تُوّاد كثيرون كعَمْرو ؟

قال : كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يُحاربون الأممَ بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعةٍ قويّةٍ كطبيعة الموج فى المدّ المرتفع ؛ ليس فى داخلها إلا أنفسٌ مندفعةٌ الى الخارج عنها ؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعةِ أمماً ليس فى الداخل منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أن تهرب إلى الداخل . . . !

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتنا على دِينِ عَمرو . . .

* * *

وانفتل قيسٌ من الصلاة ، وأقبل يترحّل ، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع ؛ وكانت ما تزال فى أحلام قلبها ؛ وكانت من الحلم فى عالم أخذَ يتلاشى إلا من عَمرو وما يتّصل بعمرو . وفى هذه الحياةِ أحوالٌ « ثلاثة » يغيب فيها الكونُ بحقائقه ؛ فيغيبُ عن السكران ، والمخبول ، والنائم ؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقةٍ واحدةٍ تتمثّل فى إنسان

وقالت مارية للراهب شطا : سَلْهُ : ما أرَبُهم من هذه الحرب ، وهل فى سياستهم أن يكون القائد الذى يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد ؟

قال قيس : حَسْبُكِ أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملا فى تحقيق كلمة الله . أما حظُّ نفسه فهو فى غير هذه الدنيا

وترجَمَ الراهبُ كلامه هكذا : أما الفاتح فهو فى الأكثر الحاكم المقيم ، وأما الحربُ فهى عندنا الفكرةُ المُصْلحة تريد أن تَضربَ فى الأرض وتعمل ، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا ؛ وبهذا تكون النفسُ أكبرَ من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وخماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدىْ رجل ، فيهما قوةُ ضبطه وتصريفه . ولو كان فى عقيدتنا أن ثواب أعمالنا فى الدنيا ، لانعكس الأمر

قالت مارية : فسله : كيف يصنع عمرو بهذه القِلَّة التي معهُ والروم لا يُحصى عَدَدُهم ؛ فاذا أخفقَ عمرو فمَن عسى أن يستبدلوه منه ؟ وهل هو أكبرُ قوّادهم ، أو فيهم أكبر منه ؟

قال الراوى : ولكن فَرَسَ قيس تَمطَّر وأسرع فى لحاق الخيل على المقدّمة كأنه يقول : لَسْنا فى هذا . . .

* * *

وفُتحتْ مصر صُلحاً بين عمرو والقبط ، وولىَّ الروم مُصْعِدين إلى الاسكندرية ، وكانت مارية فى ذلك تستقرىء أخبارَ الفاتح تطوفُ منها على أطلالٍ من شخصٍ بعيد ؛ وكان عمرو من نفسها كالملكة الحصينة من فاتح لا يملكُ إلا حُبَّهُ أن يأخذها ؛ وجعلتْ تذوي وشحب لونُها ، وبدأت تنظر النظرة التائهة ، وبان عليها أثرُ الرُّوح الظَّمأى ، وحاطها اليأسُ بجوِّه الذى يحرق الدم ، وبَدَت مجروحة المعانى ؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العَدُوَّان : شعورُ أنها عاشقة ، وشعورُ أنها يائسة :

ورقت لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضاً تتعلق فتىً رومانياً ، فسهرتا ليلة تُديران الرأى فى رسالةٍ تحملها مارية من قِبلها إلى عمرو كى تصلَ اليه ، فاذا وصلتْ بلَّغت بعينيها رسالةَ نفسها ..

واستقرّ الأمرُ أن تكون المسألةُ عن مارية القبطية وخبرها ونسلِها وما يتعلَّقُ بها مما يطول الاخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأة عن امرأة . فلما أصبَحَتا وقع إليها أن عمراً قد سار الى الاسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبرُ أنه لما أمر بفسطاطه أن يُقوَّضَ أصابوا يمامةً قد باضت فى أعلاه ، فأخبروه فقال : « قد تَحَرَّمَتْ فى جوارنا ، أقِرُّوا الفسطاطَ حتى تطيرَ فِراخها . » فأقرُّوه !

* * *

ولم يمض غيرُ طويل حتى قضت مارية نحبها ، وحَفِظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذى أسمته : نشيد اليمامة :

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تَحْضُن بَيْضها .

تركها الأميرُ تَصنعُ الحياة ، وذهب هو يَصنع الموت !

هى كأسعد امرأة ؛ تَرَى وتلمس أحلامَها .

إن سعادةَ المرأة أوّلها وآخِرَها بعضُ حقائق صغيرة كهذا البيض

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضها :

لو سُئِلَتْ عن هذا البيض لقالت : هذا كنزى .

هى كأهنأ امرأة ، مَلَكَتْ مِلْكها من الحياة ولم تفتقر .

هل أكلِّف الوجودَ شيئاً كثيراً إذا كلَّفْتُهُ رجُلاً واحداً أحبُّه !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضها

الشمسُ والقمرُ والنجوم ، كلُّها أصغرُ فى عينها من هذا البيض .

هى كأرقِّ امرأة ؛ عرفت الرِّقَّةَ مرتين : فى الحبِّ ، والولادة

هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردتُ أن أكونَ كهذه اليمامة !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضها

تقول اليمامة : إن الوجود يحب أن يُرى بلونين فى عين الأنثى ، مرة حبيباً كبيراً فى رجلها ، ومرة حبيباً صغيراً فى أولادها .

كل شىء خاضعٌ لقانونه ؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها

* * *

أيتها اليمامة ، لم تعرفى الأمير وتركَ لكِ فسطاطَه !

هكذا الحظّ : عدلٌ مضاعفٌ فى ناحية ، وظلمٌ مضاعفٌ فى ناحيةٍ أخرى

إحمدى الله أيتُها اليمامة ، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان ، عندكم فقط : الحبُّ والطبيعةُ والحياة

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضها ،

يمامةٌ سعيدة ، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان ،

نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان ، وستنسب اليمامة إلى عمرو .

واهاً لكَ يا عمرو ! ما ضرّ لو عرفت اليمامة الأخرى . . !

طنطا

مصطفى صادق الرافعي